

﴿ الباب التاسع عشر ﴾

(في أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس)

وهذا الباب ينقسم فيه الصبر الى قسمين (أحدهما) بحسب قوة الداعي الى الفعل (الثاني) بسهولته على العبد ، فاذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق ، وان فقداهما معاً - يعني قوة الداعي وسهولته - سهل الصبر عنه ، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه دون آخر ، فمن لا داعي له الى قتل النفس والسرقه وشرب الخمر وأكل الحشيشة وأنواع الفواحش ، ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله ، ومن اشتد دأبيه الى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه ، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم ، وصبر الشاب عن الفاحشة ، وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات ، منزلتهم عند الله منزلة عظيمة عالية منيعة لا يصل اليها الا من صبر . مثل صبرهم وكذلك من صبر على موت أولاده وأبويه وأقاربه وأصحابه ونحوهم ، وهو مع ذلك صابر محتسب يأمر أهله بالصبر ، وينهاهم عن لطم الحدود وشق الجيوب ، وعن كلام ما لا يجوز لهم شرعاً ، فهذا له من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما لا يعلمه الا الله . فالعبد اذا ذاق لذة المعصية ثم تاب وصبر عنها كانت توبته توبة صادقة ، ولقد بلغني عن أعرفه أنه تاب عن الخمر وحلف بالطلاق لا يشربه ثم إنه خالغ وشرب * ولقد رأيت جماعة منهم ممن حلف بالطلاق الثلاث لا يلعب بالشطرنج وتاب منه ، ومع ذلك يعلم أن أكثر العلماء قالوا بتحريمه وأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وأنه يحصل عليه من الحلف الكاذبة والفحش ما هو معروف مشهور ، ومع ذلك منهم من خالغ وأعب ، ومنهم من لعب ووقع عليه الطلاق الثلاث بعد التوبة والحلف . فالصبر المستمر مع القدرة من غير خوف على جاهه أو ماله أو عرضه ، صبر على المعاصي ، ومواظبته على ما أمره الله تعالى به صبر على

الطاعات ، فاذا فعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى جوابه أن يوفى أجره بغير حساب *
ولهذا روى الامام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ . قال : « عجب ربك من شاب
ليست له صبة » وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ، أن النبي ﷺ . قال :
« سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، امام عادل ، وشاب نشأ في
عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا
عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ،
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله
خالياً ففاضت عيناه » ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم في ظله لكمال
صبرهم ومشقة على نفوسهم ، فصبر الملك على العدل مع قدرته على الظلم والانتقام من
رعيته ، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة
المسجد ، وصبر المتصدق على اخفاء الصدقة حتى عن شماله مع قدرته على الرياء ،
وصبر المدعو الى الفاحشة مع جمال الداعي ، وصبر المتحابين في الله في اجتماعهما
وانفراقهما ، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك عن الناس ، فهذه الامور
فيها مشقة على النفوس ، فالصبر عليها بتوفيق الله وفضله واحسانه الى عبده صبر
جميل عظيم *

﴿ فصل ﴾

ولما كان الداعي في حق بعض الناس ضعيف ولم يصبروا مع تمكنهم من الصبر ،
كان عقوبتهم عند الله تعالى أشد من عقوبة غيرهم ، كالشيخ الزاني ، والملك
الكذاب ، والفقير المحتال ، وانما كانوا أشد عقوبة من غيرهم لسهولة التصبر عن
هذه المحرمات عليهم ، ولضعف دواعيها في حقهم . فكان تركهم الصبر عنها دليلاً
على تمردهم على الله تعالى ، وعتوم عليه ، ولهذا كان الصبر على معاصي اللسان
والفرج من أشق أنواع الصبر لشدة الداعي اليهما وسهولتهما ، فان معاصي اللسان

فاكمة الانسان لسرعة حركته وسهولة اطلاقه ؛ وثبت أن النبي ﷺ . قال : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، فيجب لجانه بلجام الشرع ، ولهذا قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » فان اللسان رحب اليدان في الخير والشر ، فمن أطلقه ولم يضبطه بالشرع سلك به الشيطان في المهالك ، وكبه في النار عند مالك . قال كمال إمساكه مطلقاً عن فضول الكلام الا في خير وما لا بد منه ، فان اللسان لا تؤمن غائلته وخطره عظيم . وسهولة حركته وسرعة اطلاقه قد بلى أكثر الناس في زماننا بآفاته التي هي فاكنتهم وتروور بحالهم : كالغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال والخوض في الباطل والخصومات وفضول الكلام والتحريف والزيادة والنقصان وتركيز النفس تفريحاً وتعريضاً ، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبعضه وتركيزه من يحبه وهتك المستورات ونحو ذلك . فيتفق قوة الداعي وسرعة حركة اللسان فيضعف الصبر ولهذا . قال النبي ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك لسانك » . وقد تقدم الحديث . فاذا صارت هذه الآفات التي ذكرناها للسان عادة وسجية فانه يشق على العبد الصبر عنها الامن عصمه الله . فآفات اللسان مهلكة ولها حلوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، نسأل الله السلامة منها . لهذا نجد كثيراً من المتفقه وغيرهم ممن ينتسب الى الورع يتورع من استناده الى مخدة من الحرير ، أو من قعوده على بساط حرير ، أو من شربه من قدح زجاج مموه بالذهب (أو الجلوس) لحظة واحدة في فرح وغيره مع ما فيه من الخلاف ولا يتورع من اطلاق لسانه في الكبار من الذنوب ، كالغيبة والنميمة والتغلة في أعراض الخلق ، وكذا اذا وقع الكلام في تفسير كلام الله ، أو في مسند رسول الله ، أطلق لسانه فيهما بغير علم مع علمه بقوله تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) ثم أيضاً ممن يتورع عن الحبة من

الحرام ، بل عن الفليس المحرم ، وعن القطرة من الخمر ، ويتحرز على مثل رأس
الابرة من النجاسة ، ولا يبالي بارتكاب الفرج المحرم سواء كان صبياً أو امرأة . كما
يحكى : ان رجلاً خلا بامرأة أجنبية فلما أراد جماعها قال : يا هذه غطى وجهك فان
النظر الى وجهه الاجنبية حرام . والمقصود أن الصبر عن الاشياء التي اعتادها
الانسان وورد الشرع بدمها من أشق الاشياء على النفوس الامن وفقه الله لذلك *

﴿ فصل ﴾

ومن علامة الصبر وعدم مشقته على النفس عند ورود المصائب ، وكف
السكف عن تمزيق الثياب ولطم الخدود ، وحبس اللسان عن الاعتراض على
المقادير ، والتسخط والامتناع من كل شيء يوجب اظهاره ، حتى ان السلف كرهوا
الانين قالت الحكماء : العاقل يفعل أول يوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . وقد
قال عليه الصلاة والسلام للاشعث بن قيس : « إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً
والا سلوت كما تسالوا البهائم »

﴿ الباب العشرون ﴾

(في الرضاء بالمصيبة)

اعلم رحمك الله أن الرضاء بالمصائب أشق على النفوس من الصبر ، وقد تقدم
أن الصبر من أشق الاشياء على النفوس ، وفي جامع الترمذي أن النبي ﷺ .
قال : « اذا أحب الله قومًا ابتلاهم فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط »
وقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الامام أحمد وغيرهم في الرضاء بالقضاء هل
هو واجب أو مستحب على قولين : فعلى الاول يكون من أعمال المقتصدين ، وعلى
الثاني يكون من أعمال المقرين ، ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . فالعبد قد يصبر
على المصيبة ولا يرضى بها ، فالرضاء أعلى من مقام الصبر ، لكن الصبر اتفقوا على